﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

قد يصبحُ الهوى إلـهًا يُعبد من دون الله

لمّا بيَّنَ سبحانه غايةَ البيانِ أنَّه الإلهُ وحدَهُ بما له من الإحاطةِ بجميعِ صفاتِ الكمالِ، وأنَّهُ لا بدَّ من جمعِهِ الخلائقَ ليوم الفصلِ للحكمِ بينهم بما له من الحكمةِ والقدرةِ، وحقَّرَ الهوى، ونهى عن اتِّباعِه، وكانوا هم قد عظَّموه بحيث جعلوه معبودًا، فلزمَ من ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يرجعوا عن ضلالِهم؛ تسبَّبَ عن ذلك التَّعجيبِ ممَّن يظنُّ أنَّه يقدرُ على ردِّ أحدٍ منهم عن غيّه بشيءٍ من الأشياء، فقال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية[1].

وأيضًا لمّا كان الَّذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمةٍ وعزَّةٍ، كما كانوا في الدُّنيا؛ قالوا عن غير دليل ولا نظرٍ، ولكن عن اتِّباعِ ما يشتهونَ لأنفسِهم من دوام الحالِ الحسنِ؛ تفرَّع عن حسبانهم التَّعجُّب من حالهم، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا لمّا ذكر من أحوالِ الكافرين حسبانَهم الباطلَ، وأنكرَه عليه، وكان يتضمَّن الإخبار عن اجتراحِهم السَّيِّئات وفعلِهم المنكرات؛ بيَّن عقائدهم الباطلة المسبِّبة لاجتراح السّيّئات؛ إذ اتَّخذوا الهوى معبودَهم، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

وأيضًا لمّا أنكر على الكافرين حسبانَهم العجيب في أن يكون حالُهم حسنًا في الآخرة؛ أعقبَه إنكارٌ آخر أعظم منه، وهو

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 93 - 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 357.

الإنكار على من يتَّخذ إلهه هواه، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَخَتَمَ﴾: أصلُ (ختم) يدلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيء، يُقالُ: ختمتُ العَمَلَ، وختم القارئُ السّورةَ، والخَتْمُ: الطَّبْعُ على الشَّيءِ، فهو من هذا الباب؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيءِ لا يكونُ إلّا بعد بُلوغِ آخره في الأحرازِ، والخاتَمُ مُشتقٌّ منه؛ لأنَّ به يُختمُ[1]، والختم على الشَّيء وضع خاتم عليه، أشبه بالقفل المُحكم، بحيث لا ينفذ إليه شيء[2]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾، أي: فجعله لا يسمع سماع تدبُّر وانتفاع، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده[3].

2) ﴿غِشَٰوَةً﴾: أصلُ (غشى) يدُلُّ على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ[4]، ومنه الغِشاءُ: الغِطاءُ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ تَغْشِيةً؛ إذا غطَّيته[5]، ومنه قيل: غاشية السَّرْج؛ لأنَّها غِطاء له، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلبَ من رَيْنِ الطَّبْعِ[6]، وهي على زنة فِعالَة من غَشاهُ، وتغشّاهُ؛ إذا حَجَبَهُ، وممّا يُصاغُ له وزْنُ فِعالَةٍ معنى الاشتِمالِ على شَيءٍ مثلَ العِمامة والعِلاوة واللِّفافة[7]، والمراد بالغشاوة في الآية: الغطاء والسّاتر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه ﷺ: أفرأيتَ يا محمَّدُ ﷺ حال من اتَّخَذَ إلهه هواه، فهو مطواع لهوى النَّفس، يتبع ما تدعوه إليه، فكأنَّه

أصـــلُ الـشَّـرِّ والـــضَّـــلالِ في مُتابَعة الهَوى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم).
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 1/ 29.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 161.
(4) ابن فارس: مقاييس اللغة: (غشى).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو - غشا).
(6) الخليل، العين: (غشو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (غشا).

يعبده، كما يعبد الرَّجل إلهه؛ لأنَّه كان يستحسن الحجر، فيعبده، فإذا وجد ما هو أحسن منه، رفضه إليه، أو أبقى عليه، فكأنَّه اتَّخذ هواه إلهًا أو آلهةً شَتَّى يعبد كلَّ وقت واحدًا منها، فأضلَّه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلْمٍ مِنه سبَق أنَّه يَضِلُّ، ولا يَهتَدي، وطَبَع سبحانه على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه، فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه، وجَعَل تعالى على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه، فلا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللهُ، أفلا تَتذَكَّرونَ - أيُّها النّاسُ - فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حاله؛ فلنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايتِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

التَّعجيبُ من حالِ من يتَّخذ إلهه هواه يسيِّره حيث شاءَ

جاءت جملة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ منفصلة عن الآية السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: 22]، وذلك لاختلافهما من حيث الخبر والإنشاء، فترك العطف لكمال الانقطاع؛ لكون هذه الآية قد استهلَّت بالاستفهام التَّعجيبيِّ التَّوبيخيِّ.

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

كـفْـرُ الأهـواء ظاهرٌ في الأفعال والأحوال

الاستفهام في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تقريريٌّ، أي: تقرير رؤية من هذا حالُه؛ لأنَّ الأمر حاضر ظاهرٌ، ويتولَّد من التَّقرير معنى التَّعجيب والتَّوبيخ ممَّن اتَّخذ إلهه هواه وأضلَّه الله على علمٍ، وفيه تسلية لرسولِ الله ﷺ عن المعرضين عن الإيمان،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 94، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 169، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 268، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 887.

أي: لا تعجل بهم، ولا تهتمَّ بأمرهم، فليس فيهم حيلةٌ لبشر[1]، والغرض من الاستفهام التَّعجُّبيِّ استحضار صورة المستفهَم عنه، وهو هنا الَّذي يتَّخذ إلهه هواه؛ ليُحكَمَ عليها بالتَّعجيب، وهي ماثلة في الذِّهن، كأنَّها محسوسة بالنَّظر؛ ليكون إيقاع المعنى أبلغ في نفوس المتلقّين، كما أنَّ في هذا الاستفهام إثارةً وتشويقًا لمعرفة حالِ المستفهَم عنه، وما هو الحكم فيه.

فائدة الفاء:

تفيد الفاء في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ التَّعقيب والتَّرتيب على استفهام محذوفٍ مقدَّرٍ، أي: أنظرتَ مَن هذه حاله، فرأيته، فإنَّ ذلك ممّا يُقضَى منه العجب[2].

سرُّ استعمالِ الرُّؤية دون العلم ونحوه:

التَّعجيبُ من ترك عبادة الله الواحد الأحد ولزوم عبادة الهوى

عبَّر بالرُّؤية في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ ذلك من الغرابةِ بحيث إنَّه يجبُ أن يرى، ويتعجَّبَ منه، وأشدُّ ما يكون التَّعجيب الرؤية البصريَّة؛ لأنَّها محسوسة واضحةٌ بيِّنة[3]، فالاستفهام التَّعجُّبي على معنى: انظُر إليه، وتعجَّب منه لتركِه عبادة الإله الواحدِ الَّذي قامت الحجج والآيات والبيِّنات بألوهيَّته وربوبيَّته، ولزومِه عبادة هواه الَّذي ليس له حججٌ أو بيِّنات، والَّذي لم يؤمَر بعبادته، وعبَّر بالرُّؤيةِ دون العلم، ولم يقل: (أفعلمتَ من اتَّخذ إلهه هواه)؛ لأنَّ الرُّؤيا هي أقوى وسيلة للعلم، فليس من سمع كمن رأى، فالتَّعبير بالرُّؤيا عن العلم من المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة، والإنكار على ما هو مشاهدٌ، والتَّعجيب منه أظهر من إنكار المعلوم في الذِّهن، كما أنَّ في استعمال الرُّؤية إشارةً إلى ظهور هذا الاتِّخاذ القبيح في أفعالِه وأحوالِه.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 86.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 221.

دلالةُ الفعـل ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ على الرؤية البصريّة أوالقلبيّة تعدية لمفعول أو مفعولين:

على القول بأنَّ المراد من الفعل ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الرؤية البصريَّة، فالفعل يأخذ مفعولًا واحدًا، وهو الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وهذا هو الظّاهر[1]؛ لما دلَّ عليه الفعل من التَّعجيب بمعنى: أنَّ الأمرَ ظاهر لكلِّ راءٍ ببصره، وعلى القول بأنَّ المرادَ من الرُّؤية القلبيَّةُ، أو أن يكون ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ بمعنى: فأخبرني؛ فإنَّ المفعول الثّاني محذوف، ونكتة حذفِ المفعول الثّاني للفعل ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: هي الإشعار بهولِ أمرِه، وأنَّه يكفي العلم بالمفعول الأوَّل - أي: العلم بالموصول وصلتِه - للحكم عليه بأنَّه لا يمكن لأحدٍ غير اللّه هدايته مادام هواه موجودًا، ويكون قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ آخر الآية دالًّا عليه، وتقدير الكلام: أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه، أيهتدي؟[2] ويفيد بلازمِه هلاكَه؛ إن لم يهدِه اللّه.

لا يمكن لأحدٍ غير الله هداية من اتَّخذ إلهه هواه

بلاغةُ مجيءِ الخطاب على خلافِ مقتضى الظّاهر:

الأصلُ في التَّعبير بضمير الخطاب أن يكون الخطابُ مع مخاطَبٍ معيَّن، لكنَّه في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ لا يُقصَدُ به مخاطَبٌ معيَّن، فجرى الكلامُ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المقصود هو أنَّ حالتَه قد بلغت من الظُّهور إلى حيث يمتنع خفاؤُها ألبتَّةَ على كلِّ أحدٍ، وأنَّها وصلت إلى حدٍّ أن تكون مرئيَّة لكلِّ راءٍ، فلا تختصُّ رؤية راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من تتأتّى منه الرُّؤية يُنكر عليه، ويُتعجَّب من حالِه، فلا يختصُّ بالرُّؤية مخاطَبٌ معيَّن[3]، ويحتمل أن يكون الخطاب للرَّسول ﷺ، ومعه

كـلُّ مـن تـتـأتّى منه رؤيـة حالِ مـن اتَّـخـذ إلـهه هواه ينكر عليه، ويـتـعـجَّـب من حالِه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 24.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 422، والخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 599، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.

(3) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

عموم المسلمين[1]، ونكتة توجيه الخطاب إلى الرَّسول ﷺ هو أنَّه المقصود الأوَّل بالخطاب؛ لأنَّه تسلية له؛ لكي لا يحزن؛ بسبب عنادِ الكافرين واستهزائِهم، ويدخل في التَّسلية عموم المسلمين تبعًا.

دلالة الموصول:

توبيخُ من يتَّخذ إلهه هواه سواء أكـان فـردًا أو جماعةً

يدلُّ الاسم الموصول في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ على العموم؛ للإشارة إلى أنَّ الإنكار والتَّعجيب يكونُ لكلِّ من يتَّخذ إلهه هواه، وهو المناسب للمقام؛ ليكون التَّوبيخ أشدَّ، والاسم الموصول وإن كان للعموم على سبيل البدل من المفرد، بمعنى كلِّ واحدٍ واحدٍ؛ بسبب إفرادِ الضَّمير العائد في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وما بعده، لكنَّه يصدق على فريق المستهزئين الذين حسبوا أن يكون محياهم ومماتهم سواء بقرينة ضمير الجمع، في الجملة المعطوفة بقولِه: ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾.

سرُّ إفراد الضَّمير دون جمعهِ في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾:

تتنوَّع الأهـواء بتنوُّع الأفـراد، وتتنوَّع الآلهة، وتتعدَّد بتنوُّع الأهواء وتعدُّدها

سرُّ إفراد الضَّمير في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ دون أن يقال: (أفرأيت من اتَّخذوا إلههم هواهم)؛ ليكون الضَّمير عائدًا إلى فريق المستهزئين من بداية الكلام هو بيان أنَّ لكلٍّ هواهُ المختصَّ به، بمعنى: أنَّ كلَّ فردٍ يتَّخذ إلهه هواه، فتتنوَّع الأهواء بتنوُّع الأفراد، وتتنوَّع الآلهة، وتتعدَّد بتنوُّع الأهواء وتعدُّدها، فتحسب الكافرين جميعًا، وأهواؤهم شتّى.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾:

التَّعريضُ بقبْحِ حـالِ مـن اتَّخذ إلـهـه هـــواه، وذلَّتِه في الدُّنيا ونهاية جهله

عبَّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الصِّلة وما عطف عليها هي الَّتي بنيَ عليها وجه الإنكار والتَّعجيب، بمعنى أنَّ سبب التَّعجيب من حالِه هو أنَّه اتَّخذ إلهه هواه، كما أنَّ في ذكر الصِّلة تعريضًا بقُبْحِ حالِه وذلَّتِه ونهاية جهله.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 357.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

من يتَّخذ إلهه هواه إنَّما يتَّخذه راغبًا فيه متخيِّرًا لـه؛ إشباعًا لرغبتِه وشهوتِه

عبَّر بلفظ الاتِّخاذ بدلًا من الجَعْل أو الطّاعة والاتِّباع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ للإشعار بقوَّة تمسُّكه بهواه وحرصِه عليه واتِّباعِه له، فكأنَّه قد حازَه، وحصَّله، وقبض عليه بقوَّة على سبيل تناوله له باليد، فجعلَه إلهًا يطيعه، ويتَّبعه، ولمّا أسند الفعل إلى الضَّمير (هو)؛ أفادَ أنَّه اتَّخذ إلهه هواه لنفسِه، وأنَّه تخيَّره راغبًا فيه، وفي صيغة (افتعل) إشعارٌ بأنَّه بذل الجهد، وتكلَّفَ في اتِّخاذه إلهه هواه، كما أفادَ التَّعبير بالاتِّخاذ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أنَّه اتَّخذ إلهه هواه لنفسِه.

براعةُ التَّصوير بين الاستعارة التَّمثيليَّة والتَّشبيه:

متابعةُ الهوى كلُّها مذمومة، فإنَّ ما يدعو إليه الهوى باطلٌ

الظّاهر أنَّ تركيب: ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هو على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة[1]؛ لبيانِ حالةِ الكافر بأنَّه ما هوى شيئًا إلّا ركبه، وأنَّه كلَّما اشتهى شيئًا لم يمتنع منه؛ فهو مطواع لهوى النَّفس، يتبع ما يدعوه إليه حيث كان[2]، ويميل معه حيث مالَ، فكأنَّه يعبده، كما يعبد الرَّجل إلهه، فلا عقلَ يتَّبعه، ولا نظرَ يوجِّهه؛ لغلبة هواه عليه؛ لتفيد الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ تعدُّدَ آلهته؛ لأنَّه كلَّما هوت نفسه شيئًا؛ عبده، ويحتمل أن يكون تركيب ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ على التَّشبيه البليغ[3]، بحذف أداة التَّشبيه لتوكيد الصِّلة بين المشبَّه: وهو الإله، والمشبَّه به: وهو الهوى، وفي حذف المشبَّه إشعارٌ بعموم الاشتراكِ وقوَّته بين الهوى المتَّخذ إلهًا وبين الإله، فكأنَّ كلَّ ما ثبت للإله الحقِّ من كمال الطّاعة ولزوم الانقياد والإجلال والتَّعظيم؛ ثبت لهواه الَّذي اتَّخذه إلهًا، وهذا من التَّشبيه المقلوب، على ما ذهب إليه السَّكاكي وغيرُه[4]،

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 448، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 149.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 149، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.
(4) السّكاكي، مفتاح العلوم ص: 344.

بجعل المشبَّه – وهو الهوى – هو المشبَّه به، والمشبَّه به – وهو الإله – هو المشبَّه؛ للمبالغة في تصوير الضَّلالِ حتَّى صار المشبَّه – الهوى – هو الأصل، والمشبَّه به – الإله – هو الفرع لمزيد التَّوبيخ والتَّقريع على من يكون هذا حالُه[1].

ويحتمل أن يكون التَّركيب على الحقيقة بأن يكون هَواهُ بمعنى مَهويِّه، أي: عبدَ إلهًا مهويَّه؛ لأنَّه أحبَّه، واستحسنه يَعني الَّذِينَ اتَّخَذوا الأصنامَ آلِهَةً لا يقلعون عَن عبادتها؛ لأنَّهم أحبّوها، أي: ألِفوها، وتَعَلَّقَت قُلوبُهم بِعبادَتِها، أو لأنَّهم استحسنوها بهواهم، وإذا استحسن أحدهم شيئًا آخر أحسن منه؛ ترك عبادة الأوَّل، وعبد الثّاني، فيعبد كلَّ وقت واحدًا منها، فتلك كانت عادتهم، وذلك اتِّخاذ الآلهة بهواهم؛ إذ الإله هو المعبود عندهم[2].

والقول بالاستعارة التَّمثيليَّة أجمع للمعنى، وأجمل في تصوير الحالةِ، وعلى الأوجه الثَّلاثة فإنَّ التَّركيبَ يفيدُ قلَّة عقلِهم وضعفِ نظرِهم بحيث يكونون موضع استهزاءٍ وسخرية، فإنَّ نهاية الجهل أن يتَّخذ إلهه هواه؛ لأنَّ ما يدعوا إليه الهوى باطل، ولابدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ هذه الآية، وإن كانت نزلت في هوى الكفر، فهي متناولة لكلِّ من اتَّبعَ هوى النَّفس الأمّارة، ويدخل فيه الكافر فيما ذكر دخولًا أوَّليًّا، ولا يكاد يسلم على هذا من عموم الآية إلّا من اتَّبع الشَّريعة في كلِّ ما يأتي، ويذر[3].

سببُ تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾:

قد يقال: لِمَ قدَّم المفعول الثاني، وأخَّر المفعول الأوَّل في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فإنَّ الأصل أن يكون التَّرتيب: اتَّخذ هواه إلهًا؟ أي: صيَّر هواه إلهًا، والجواب: هو أنَّه، ولكنَّه لمّا كان الأصلُ في مفعولي الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أنَّهما مبتدأ وخبر؛ كان أصل الكلام اتَّخذ هواه إلهه، فيكون تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾ من باب تقديم الخبر على المبتدأ، وهو الَّذي عبَّر عنه هنا بتقديم المفعول الثّاني الَّذي هو الخبر في الأصل على الأوَّل الَّذي هو المبتدأ، وسبب التَّقديم إظهار العناية بالمفعول الثّاني؛ لأنَّه موضع التَّعجيب والإنكار على

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 78.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 227، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 158.

(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 86، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 25.

الاتِّخاذ[1]، كما يقال: اتَّخذت سندًا أخي لفضل العناية بالسَّندِ، وفي التَّقديم إشعارٌ بتوبيخِهم وقبح فعلِهم؛ لأنَّهم حقَّروا الإله بتنزيلِه إلى منزلة الهوى والشَّهوة، وفيه كذلك نكتة لطيفة، وهي إفادة الحصر، فإنَّ تقديم الخبرِ على المبتدأ يفيد الحصر[2]، فكأنَّه قال: أرأيت من لم يتَّخذ هواه إلّا معبودًا له، فهو أبلغُ في ذمِّه وتوبيخِه؛ لأنَّه قصر هواه على أن يكون إلهًا معبودًا له، فما دامَ الهوى موجودًا لا ينفكّون عن عبادتِه، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الكلام على الأصل ولا تقديم في الآية، بمعنى أنَّه اتَّخذ إلهه ما يهواه، والجملة حينئذٍ تفيد الحصر، كذلك لمجيء المبتدأ والخبر - أي: باعتبار أصلهما - معرفتين، أي: لم يتَّخذ لنفسِه إلهًا إلّا هواه[3].

من أقبح أنواع الكفرِ وأشدِّه ذمًّا اتِّخاذ الهوى إلهًا

براعةُ تركيب: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾:

جاء التَّركيب بتقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على ﴿هَوَىٰهُ﴾، ولو عكس الكلام، فقدَّم الهوى على الإله؛ لتغيَّر المعنى، وجاء على عكس المقصود، فإنَّه لمّا قال: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ أفادَ أنَّ هذا المذموم قصر نفسه على أن يكون الهوى معبودَه، فلا يعبدُ سوى هواه، وقد يتألَّه الهوى غيره، فالكلام على الذَّمِّ وتقبيح الفعل، بمعنى أنَّه محا وصف الإله، ولم يبقَ إلّا الهوى، ولو عكس الكلام، وقيل: أفرأيت من اتَّخذ هواه إلهه؛ لكان المعنى أنَّه قصر هواه على الإله، فلا غيَّ له؛ لأنَّ هواه تابع لأمر الإله، وقد يشاركه في تألُّه الإله غيره؛ بمعنى أنَّه سلب نفسَه الهوى، فلم يعمل به إلّا فيما وافق أمر إلهه، أي: إنَّه محا الهوى، ولم يبقَ إلّا الإله، ويكون الكلام على المدح، وممّا يوضِّح انعكاس المعنى بالتَّقديم والتَّأخير أنَّك لو قلت: فلان اتَّخذ عبده أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبد، ولو قيل: إنَّه اتَّخذ أباه عبده؛ لكان معناه أنَّه

من براعة نظم القرآن تقديمُ الإله على الهوى

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 291، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 125.
(2) ابن المنير، الانتصاف حاشية على الكشّاف: 3/ 282.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 463.

أهان الأب، ففي مثل هذا التَّركيب، وهذا الأسلوب إذا قدَّمَ المعنى الحقير؛ شرَّفه، وإذا قدَّم المعنى الشريف؛ حقَّره، ومثله لو قلت: اتَّخذ إصطبله مسجدًا، فهو على المدح؛ لأنَّه شرَّف الإصطبل بتصييره مسجدًا، بمعنى أنَّه محا الإصطبل، ولم يبق إلّا المسجد، ولو عكست، وقلت: اتَّخذ مسجده إصطبلًا؛ كان على الذَّمِّ؛ لأنَّه محا المسجد، ولم يبقَ إلّا الإصطبل[1]، فترى أنَّ تقديم ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ و﴿هَوَىٰهُ﴾ قد أصاب شاكلة الرَّمي.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿هَوَىٰهُ﴾:

عبَّر في قولِه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بلفظ الهوى؛ للإيذانِ بأنَّه باتِّباعِه الهوى وعبادتِه له، فإنَّه يهوي في الهواء الممدود، وهو الفضاء، أي: ينزل به عن درجة عليا إلى ما دونها، فهو في سُفول ما دام تابعًا لهواه؛ لأنَّه بحيث لا قرارَ له، ولا تمكُّنَ، فلذلك كان اتِّخاذ إلهه هواه يوجب الهوان، ولو عكس، وجعل هواه إلهه؛ لارتفع في علِّيين.

عبادةُ الهوى توجب الهوان والذِّلَّة

نوعُ الواو ودلالتها:

الواو المتكرِّرة في قولِه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، هي للعطف المقتضي التَّشريك في حكم التَّعجيب من حالِه، فالتَّعجيب من مجموع المعطوف والمعطوف عليه؛ لأنَّ المعطوفات المذكورة في حيِّز صلة الموصول، فالمعطوفات متمِّمة لصورة التَّعجيب ممَّن هذا حالُه؛ لأنَّ التَّعجيب لا يكون لِمن يتَّخذ إلهه هواه من دون ذكر: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وما بعدَه؛ لأنَّه قد يتَّخذ إلهه هواه، ثمَّ يهديه الله، فلمّا ذكر المعطوفات؛ فرَّع عليه قولَه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أحد يهديه بعد الله، فصورة التَّعجيب غريبة لشناعتها وقبحِها، فالإله المعبود عنده هو الهوى والشَّهوات الخسيسة، والضَّلال طريقه، والسَّمع والقلب مختوم

التَّدرُّج والزِّيادة في إضلالِ من يتَّخذ إلهه هواه إلى منتهى اليأس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 394 - 18/ 95.

عليهما مطموسان، والبصر عليه غشاءٌ سميك محكم الإحاطة، فكيف يكون من حالُه هذه؟ ومن يستطيع أن يردَّ عليه ما سلبه الله تعالى؟ لا أحدَ يستطيع، ولا أحدَ يهديه[1]، ويُلمَح في واو العطف معنى التَّدرُّج والزّيادة في الإضلالِ، حتّى الوصول إلى اليأس من اهتدائِه بجعل الغشاوة على بصرِه.

دلالةُ استعمال مفردة (أضَلَّهُ):

أفاد التَّعبيرُ بلفظ (أضَلَّهُ) أنَّه قد ضلَّ بعد أن جاءَه الهدى الَّذي أخبر عنه قوله سبحانه تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، ولمّا كان الضَّلال هو العدول عن الطَّريق المستقيم والانحراف عنه؛ أفادَ أنَّ الطَّريق المستقيم في الهداية بالقرآن واتِّباعِه، والمعنى: أضلَّه عن القرآن والشَّريعة؛ بسبب اتِّباعِه الهوى، وجعله معبودَه يميل معه حيث مالَ.

الضَّلال عن القرآن والشَّريعة إنَّما هو بسبب اتِّباعِ الهوى وجعله معبودًا

دلالةُ الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾:

يعود الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾ على الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ بما اتَّصف به من صلة الموصول، والمعنى أضلَّ الله من اتَّخذ إلهه هواه، فيكون في عود الضَّمير إيماءٌ إلى سبب إضلالِه.

دلالةُ إسنادِ فعل الإضلال لاسم الجلالة:

أُسند الإضلالُ إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ على طريق المجاز العقلي، بعلاقة السَّببيَّة، والمراد حرمانه من اللُّطف وصرفه عنه عقابًا له على اتِّخاذِه إلهه هواه[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى هو الَّذي يهدي، وهو الَّذي يضلُّ، ونكتة التَّعبير بالمجاز الإيذان بتمكُّن الضَّلال منه وثباتِه فيه حتَّى صار كالشَّيء الخِلقي غير العرضيِّ، بمعنى: أنَّ الضَّلالَ صار ثابتًا فيه متمكِّنًا منه.

جعل الله تعالى للهداية أسبابها، وللضَّلال أسبابه كذلك

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 76.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

من أشدِّ صور الضَّلال كونه بعد تمكُّن صاحبه من العلم

عبَّر بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ للإشعار بتمكُّن العلم منه وإحاطتِه به، ويحتمل أن يكون ﴿عَلَىٰ﴾ معناه المصاحبة، بمعنى (مع)[1] على سبيل استعارة الحرف لمعنى حرفٍ آخر بقرينة السّياق؛ ليفيد معنى التَّمكُّن والمصاحبة، أي: أضلَّه الله مع علمِه، وتمكُّن هذا العلم منه.

نكتةُ التَّقييد بالحال:

أقبح أنواع الضَّلال أن يضلَّ الإنسان، وهو يعلم الحقَّ من الباطلِ

يحتمل أن يكون الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالًا من المفعول به، وهو الضَّمير في ﴿وَأَضَلَّهُ﴾، والتَّقدير: أضلَّه الله عالمًا بالهدى، فيكون ضلالُه متعمَّدًا، فهو يعلم الحقَّ من الباطلِ، وهذا أقبح أنواع الضَّلال؛ لدلالتِه على أنَّ ضلالَه لعنادِه[2]، والمعنى: أضلَّه الله في حالِ كونِه على علم منه، بأنَّه لا يصحُّ أن يكون هواه إلهه، وفي حالِ كونِه على علم بأنَّ الإله المستحقَّ للعبادة هو الله تعالى، وفي هذا التَّوجيه تعجيبٌ من حالِه مع علمِه ببطلان ما يفعلُه، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّه ضلَّ لعنادِه، فأضلَّه الله، وفيه إيماءٌ كذلك إلى غلبةِ هواه له، وإلى أنَّه إنَّما يتَّخذ إلهه هواه شهوةً منه، ولو ترك اتِّباعَ الهوى؛ لعرف الحقَّ، واتَّبَعه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المعصية مع العلم أفحشُ منها مع الجهلِ، ويحتمل أن يكون صاحب الحال هو الفاعل، أي: الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: أضلَّه الله؛ لعلم تعالى به وإحاطتِه بعاقبتِه بأنَّه يختار الضَّلالةَ، ولا يهتدي، ولو جاءته كلُّ آية[3]، ويؤيِّد هذا التَّوجيه مجيء الكلامِ بعدَ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 9/ 227، والكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2816، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 365، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 358.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 187، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 13/ 359.

لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ [الجاثية: 20]، والمعنى: أضلَّه الله تعالى، عالمًا سبحانه بأنَّه أهل لذلك؛ لفساد جوهر روحه[1]، وفي هذا التَّوجيه مبالغة في ذمِّ المتَّخذ إلهه هواه، وقطع الرَّجاء من إيمانِه، بمعنى: أنَّه تعالى آيَسَ رسولَه ﷺ عن إيمانِ مَن عَلِمَ منهم أنَّهم لا يؤمنون[2]؛ تسليةً له عن المعرضين عن الإيمان؛ لكي لا يحزن لعنادِهم واستهزائِهم.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ الختم بين الاستعارة والمجاز المرسل:

تصويرُ حالةِ عدم الانتفاع من الآيات بالختم على السَّمع والقلب

في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ تعبير مجازيٌّ باستعمال لفظ (خَتَمَ)، وهو إمّا أن يكون استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه المنع - من إدراك القول في السَّمع، ومن نفوذ الحقِّ والهدى إلى القلب - بالمانع الحسّيِّ، الَّذي يوضع على الشَّيء، فيختمه، ويحكم إغلاقه، أو يقال في وجه الاستعارة: إنَّه يشبِّه تحقُّق نبوِّ سمعِه عن قبول الحقِّ، وعدم نفاذ الحقِّ في قلبِه، بكونِهما مختومًا عليهما على سبيل الاستغلاق المانع من القبول، ويحتمل أن تكون استعارة تمثيليَّة بأن شُبِّهت الهيئة الحاصلة من تصميمه على الكفرِ بعدم الانتفاع من سماع الحقِّ وعدم التَّأمُّل في الآيات والحجج الظّاهرة البيّنة بهيئة الاستغلاق والمنع المعبَّر عنها بالختم، أو يقال في وجه التَّمثيل: هو أن يشبَّه حال سمعِه وقلبِه في أنَّهما خُلقا؛ للانتفاع بهما، ثمَّ إنَّهما لم ينتفَع منها بحالِ أشياء مخلوقةٍ؛ للانتفاعِ بها مع المنع من ذلك بطريق الختم، وإمّا أن يكون الكلامُ على طريق المجاز المرسل، بأن عبَّر عن عدم نفوذ الحقِّ إلى سمعِه وقلبِه بالختم، فذكر الملزوم، وهو الختم، وأراد لازمَه، وهو امتناع النُّفوذ، بعلاقة اللُّزوميَّة[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 150.
(2) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 358.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 254.

براعةُ استعمال مفردة (خَتَمَ) دون (طَبَعَ):

الطَّبعُ يثبت في المطبوع، فلا يتخلَّف بخلاف الختم

لمّا كان الكلام مع الكفّار، وكان حالُهم أقلَّ ضلالًا من حالِ المنافقين؛ عبَّر مع الكفّار بالختم، فقال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 6 - 7]؛ لأنَّ الختم قد يُفتَح، فالكافر قد يؤمن، وأمّا الطَّبع؛ فقد استُعمل مع المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾ [التوبة: 87]، ومع الكفّار حين يكون الأمر منتهيًا، ولا ينفع معهم أيُّ عظةٍ أو تذكير، بأن شرحوا للكفر صدرًا، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النّحل: 108]؛ لأنَّ الطَّبع أثرٌ يثبت في المطبوع، ويلزمه، ولا يفارقه، فهو يفيد معنى الثَّبات واللُّزوم ما لايفيده الختم.

دلالةُ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

عبَّر بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾؛ للإشعار بتمكُّن الختم من سمعِه وقلبِه؛ لأنَّ حرف الاستعلاء فيه معاني العلوِّ والقهر والتَّسلُّط.

نكتةُ ذكر ﴿سَمْعِهِۦ﴾ لا (أذنه):

السَّمع الحاسَّة والأذن آلة السَّمع

عبَّر بلفظ السَّمع في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ دون أن يذكر آلة السَّمع، وهي الأذن، أي: لم يقل: وختم على أذنِه؛ لأنَّ المرادَ ختم على حاسَّة السَّمع، الَّتي هي محلُّ الإدراك والانتفاع بالمسموع، وأمّا الأذن؛ فهي آلة، وقد تُدرَك المسموعاتُ بغير أذنٍ.

دلالةُ إضافةِ السَّمع للضَّمير:

في قوله: ﴿سَمْعِهِۦ﴾ أُضيف السَّمع إلى الضَّمير العائد إلى الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ بما اتَّصف به مع صلتِه، أي: وختم على سمع من

اتَّخذ إلهه هواه، ومثله (قَلبِهِ)، ففيه إيماءٌ كذلك إلى أنَّ سبب ختمِه تعالى على سمعِه وقلبِه هو أنَّه اتَّخذ إلهه هواه.

عبادةُ الهوى واتِّباعه سبب لختمِ الله تعالى على السَّمعِ والقلبِ

نكتةُ تقديم السَّمع على القلب:

قُدِّمَ السَّمع على القلب في قولِه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾؛ لأنَّ السَّمع من روافد القلب، فالسَّمع أداة موصلة لمجمع الإدراك، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ القرآن يطرق الأسماعَ، فيدخل إلى القلوبِ، فمَن خُتِمَ على سمعِه؛ خُتِمَ على قلبِه، فخَتْمُ السَّمعِ سببٌ لخَتْمِ القلب.

من خُتِمَ على سمعِه؛ خُتِمَ على قلبِه

نكتةُ استعمالِ مفردة (جَعَلَ):

في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ عبَّر بلفظ (جَعَلَ)؛ للإشعار بأنَّه صيَّره على حالةٍ دون أخرى، وحكمَ عليه بذلك، بمعنى أنَّه كان بالإمكان ألّا يجعله كذلك، ولهذا لم يعبِّر بلفظ الخلق؛ لأنَّ لفظ الخلق يفيد أنَّه خلقه على هذه الصِّفة، والأمر ليس كذلك، كما أنَّه عبَّر بالجعل دون الختم، أي: لم يقل: وختم على بصرِه؛ لأنَّ صيرورة البصر فيه آفة تمنع من الإبصار والاستبصار، ليس مثل صيرورة السَّمع والقلب آفتين؛ إذ الأعمى لا يُحرمُ بالكليَّة عن كسب الكمالِ، وكذا الأعمى مجازًا، ولهذا أخَّر ذكر الغشاوة عن الختم[1]، كما أنَّ المنع من الانتفاع بالبصر يكون بوضع الغشاوة عليه، فالآفة المناسبة لحجب البصر من الرؤية الكاشفة هي الغشاوة، وأمّا الآفة المناسبة لمنع الانتفاع بالسَّمع والقلب؛ فهي الختم عليهما، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها في القرآن مقامٌ.

آفةُ الانتفاعِ من البصر بوضع الغشاوة أسوة بآفة الختم على القلب

بلاغةُ التَّعدية بحرف الاستعلاء:

عُدّي الفعل (جَعَلَ) بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾؛ للإشعار بأنَّه تعالى جعل الغشاوة متمكِّنةً من بصرِه ثابتةً، فلا يقدر على النَّظر

الهوى حاجب للأبصار

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435.

في الآيات المنصوبة، وجعْلُ الغشاوةِ على البصر أبلغُ في المنع من الإبصار من أن يقال: وغُشِيَ بصره، أو وجعل بصره مغشيًّا؛ لأنَّه لو قيل: (وجعل بصره مغشيًّا)؛ دلَّ على تغيير حالِ بصرِه وتحوُّله من حالةٍ إلى أخرى، وأمّا إن كان مبصرًا، ويوجد مانع من الإبصار بفعل فاعلٍ، فهو أشدُّ عليه، كما أنَّ التَّعبير بحرف الاستعلاء أوفق بالمقام؛ لأنَّ المراد أنَّه يبصر، ولكن جعل على بصره غشاوة؛ بسبب اتِّخاذه إلهه هواه.

نكتةُ إيثار البصر على العين:

قد يبصر أعمى العين ببصيرته ما لا يبصره غيره بعينه

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ عبَّر بالبصر دون العين؛ لأنَّ المراد حاسَّة البصر، وليس الآلة الَّتي يُبصَر بها، فكم من أعمى العين يبصر ببصيرتِه ما لايبصره غيره بعينِه.

غرضُ تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿غِشَٰوَةً﴾؛ للاهتمام بموضع الجعل، وللإشارة إلى اختصاص الغشاوة بالبصر دون غيرِه.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿غِشَٰوَةً﴾:

الـغِـشـاوةُ ما يـغـشى الـعـين مـن ظـلـمـةٍ، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤيةً كاشفةً

لمّا كان لفظ ﴿غِشَٰوَةً﴾ على وزن (فِعالة)؛ فهو من أسماء الصِّناعة مثل عِمامة وعِصابة، أفاد أنَّ اللَّفظ على معنى اشتمالِه على شيءٍ وإحاطتِه به كاشتمال العمامة على ما تحيط به[1]، فأشعرَ لفظُ ﴿غِشَٰوَةً﴾ بتغطية الغشاوة للبصر على جهة اشتمالِها عليه وتمكُّنها منه، والغِشاوة ما يغشى العين من ظلمةٍ، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤيةً كاشفةً.

بلاغةُ الاستعارةِ:

في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مجاز بالاستعارة؛ إذ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غشي).

خلْقُ الله تعالى الـحـواسَّ؛ لينتفع منها أصحابُها في معرفة الله وتوحيده واتِّباع شريعتِه

لا تغشية في الحقيقة، فإمّا أن تكون استعارة تصريحيَّة أصليَّة في لفظ ﴿غِشَٰوَةٌ﴾، وذلك بتشبيه عدم انتفاعِهم من إبصارِهم؛ للآياتِ والأدلَّة والبيِّنات الظّاهرة بالبصر المغطّى عليه بغشاوةٍ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لكمال الإيضاح والبيان لمن هذا حالُه[1]، وإمّا أن تكون استعارة تمثيليَّة بأن يشبِّه حالُ أبصارِهم في أنَّها خلقت للانتفاع بها، ثمَّ لم ينتفَع بها بحالِ أشياء مخلوقة؛ للانتفاع بها مع المنع من ذلك بطريق التَّغطية، أو يقال: شُبِّهت هيئة متخيَّلة في أبصارِهم من عدم التَّأمُّل في وحدانيَّة اللّٰه، وصِدق كتابه ورسولِه، بهيئة الغشاوة على البصر المانع من الانتفاع بما هُيِّئ له، وما هو مرجوٌّ منه[2].

توجيهُ القراءتين في لفظ ﴿غِشَٰوَةٌ﴾:

تنـوُّع المعنى وتوسُّعه لتنوُّع القراءة

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿غَشَٰوَةٌ﴾ بغير ألف مع فتح الغين على وزن (فَعَلَة)، وقرأ الباقون: ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ بكسر الغين وإثبات الألف فيها[3]، على أنَّها اسم بوزن (فِعالة)، وتوجيه القراءتين: أنَّه على قراءة ﴿غَشَٰوَةٌ﴾ يكون المعنى أنَّه جعلَ على بصرِه غَشْوَةً في دفعة واحدة، ومرَّة واحدة[4]، وعلى قراءة ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ تكون الكلمة من أسماء الآلة، أي: بتشبيه الغِشاوة بأسماء الآلة كالعِمامة الَّتي تلتفُّ، والمعنى تلتفُّ الغِشاوة بالعين محيطةً بها، فتظلم، فلا ترى شيئًا.

براعةُ التَّرتيبِ بين المعطوفات:

من يتَّخذُ إلهه هواه تُقفَل عليه جميع أبواب الاهتداء

في قوله ﷻ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بدأ بذكر الإضلال على علمٍ، فالختم على السَّمع

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 54.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 52.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 132، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 372.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 77.

والقلب، والجعل على البصر غشاوةً، والتَّرتيب بين المعطوفات على سبيل التَّرقّي في امتناع الانتفاع، وسدِّ جميع أبواب الاهتداء، فإنَّه لمّا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾؛ كان كأنَّ قائلًا يقول: لعلَّه يهتدي ما دام على علمٍ، فزادَ في بيان امتناع اهتدائِه، فذكر الختم على السَّمع والقلب؛ للإيذان بامتناع وصول الحقِّ إلى سمعِه وقلبِه والانتفاع به، ثمَّ زادَ عليه، فذكر أنَّه على بصره غشاوة، فأُغلقت المنافذ المعتادة كلُّها، فلا سبيل له إلى الاهتداء من دون هداية الله تعالى له، فكانت النَّتيجة قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ مع آية البقرة:

في آية الجاثية قال الله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾، فقَدَّمَ ذِكرَ السَّمعِ عَلى القَلبِ، وفي سورةِ البقرةِ أخبر الله تعالى عن الكافرين بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]، فقَدَّمَ القَلبَ عَلى السَّمعِ.

عند ذكرِ المواعظ يُقدَّم السَّمع على القلب، وعند ذكرِ الإيمان والكفر يُقدَّم القلب على السَّمع

وتوجيه تقديم السَّمع على القلب في آية الجاثية؛ لأنَّه لمّا أخبر عن القرآن بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، وحثَّهم على الاتِّعاظ به والاهتداء بهديه؛ قصد من تقديم السَّمع بيان عدم قبولهم النُّصح وعدم المبالاة بالمواعظ الواصلة إليهم حينًا بعد حين، فناسب تقديم السَّمع على القلب، وأمّا في سورة البقرة؛ فكان الكلام في سياق ذكر الإيمان والكفر، وموضعُهما هو القلبُ، فذكر ختم القلب قبل السَّمع، فناسب كلُّ لفظٍ موضعَه في التَّقديم والتَّأخير.

كما أنَّه لمّا ذكر في سورة الجاثية أهل الكتاب في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]، وكان القوم قد سمعوا عنهم وعن أخبارِهم؛ ناسب تقديم السَّمع على القلب.

أو يقال: الفرق بينهما هو أنَّ المراد إرشاد العباد إلى أنَّ الرَّشاد أو الضَّلال إمّا أن يكون في القلب أوَّلًا، ثمَّ يفيض على السَّمع، وإمّا أن يكون السَّمع هو الَّذي يرفد القلب، وبيانه أنَّ الإنسانَ قد يَسمَعُ كَلامًا، فيقَعُ في قَلبِهِ مِنهُ أثَرٌ، مِثلَ أنَّ جَماعَةً مِنَ الكُفّارِ كانوا يُبغِّضون النبيّ ﷺ عند الناس ويُلقونَ إليهم كذبهم عليه؛ فالسّامعونَ إذا سَمِعوا ذَلِكَ أبْغَضوهُ، ونَفَرَتْ قُلوبُهم عَنهُ، وأمّا كُفّارُ مَكَّةَ؛ فَهُم كانوا يُبغِضونَهُ بِقُلوبِهِم؛ بِسَبَبِ الحَسَدِ الشَّديدِ، فَكانوا يَستَمِعونَ إليه، ولَو سَمِعوا كَلامَهُ؛ ما فَهِموا مِنهُ شَيئًا نافِعًا، فَفي الصّورَةِ الأولَى كانَ الأثَرُ يَصعَدُ مِنَ البَدَنِ إلى جَوهَرِ النَّفسِ، وفي الصّورةِ الثّانِيةِ كانَ الأثَرُ يَنزِلُ مِن جَوهَرِ النَّفسِ إلى قَرارِ البَدَنِ[1].

مِن يُبغض النبي ﷺ حسدًا ليس كـمـن يبغضه لما يسمعه من الحاسد

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾؛ للتَّفريع على المتعجَّب منه، أي: على الموصول وصلتِه، وللتَّرتيب عليه، فما بعد الفاء بمنزلة النَّتيجة لِما قبلها ومرتَّب عليه، أي: من كان هذا حالُه؛ فمن يهديه من بعد اللّه؟

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعه وغرضه:

الاستفهام في قولِه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾؛ للإنكار المتولِّد منه معنى النَّفي، بمعنى إنكار أن يهديه أحدٌ سوى اللّه تعالى، ويتولَّد منه نفي أن يهديه أحدٌ سوى اللّه تعالى، وإنَّما عبَّر بصيغة الاستفهام المجازي المفيد معنى الإنكار دون أن يقال بصيغة النَّفي: فلن يهديه أحد بعد اللّه، أو فلا أحدَ يهديه بعد اللّه؛ لأنَّ الإنكار أوثق في نفي الهداية، وفي تكذيب من يدَّعي أن يهديه أحد بعد اللّه، ويتولَّد من الإنكار توبيخ من اتَّخذ إلهه هواه وتقريعه؛ لأنَّه أوصلَه إلى نهاية الضَّلال الَّذي لا أحد يقدر على انتشالِه من الضَّلال وهدايته سوى اللّه الإله الواحد الأحد، والغرض منه النَّدم على ما فات والارتداع

أسلوبُ الإنكار يُستعمل للحثِّ على النَّدم على ما فات والارتداع في المستقبل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 678.

في المستقبل، ولو جاء الكلام بغير صيغة الاستفهام الإنكاري؛ لَما أفاد هذه المعاني، ومثل هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الروم: 29].

نكتةُ مجيءِ المسند جملة فعليَّة:

الالتجاءُ إلى الله تعالى هو السَّبيل الوحيد للهداية

في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾ جاء المسند ﴿يَهۡدِيهِ﴾ جملة فعليَّة؛ لتقوية حكم الإنكار، وجاء الفعل بصيغة المضارع؛ لإفادة تجدُّد إنكار أن يهديه أحد بعد الله واستمرارِه حالًا فحالًا، بمعنى قطع سبيل الهداية عنه إلّا إذا هداه الله تعالى.

بديعُ المقابلة في الآية:

المرادُ من الهداية توفيق الله تعالى بالسَّير على الطَّريق المستقيم واتِّباعِ الشَّريعة

لمّا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾؛ أفاد أنَّ المراد من الضَّلال العدول عن الطَّريق المستقيم وعن الشَّريعة، ولمّا قابل الإضلال بالهداية في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أفاد أنَّ المرادَ من الهداية توفيق الله تعالى بالسَّير على الطَّريق المستقيم واتِّباع الشَّريعة، والمعنى: فمَن يوفِّقه للسَّير على الحقِّ وإصابتِه واتِّباع الشَّريعة بعد أن أضلَّه الله بسبب اختياره الضَّلال.

فائدة ﴿مِنۢ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ للابتداء، بمعنى إنكار أن تبتدئ هدايته بعد الله، وذكر حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾، ولم يقل: فمن يهديه بعد الله؛ للإشعار بالنَّصِّ على الإنكار مبتدئًا بعد الله مع استغراقِ جميع الأزمان.

أهلُ الهداية هم مع الله تعالى وأهل الضَّلال متأخِّرون بعيدون عنه سبحانه

بلاغةُ استعمال الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ عبَّر بظرف الزَّمان ﴿بَعۡدِ﴾، ولم يقل: فمن يهديه سوى الله، أو غير الله؛ لأنَّه لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾؛ أفاد التَّعبير بالظَّرف إثبات أنَّ الهداية لا تكون لسوى الله تعالى، كما أفاد أنَّ الله تعالى تركَه، وأنَّه صار في وضع المتأخِّر الضّالِّ، ومن

هذا حاله؛ فلا أحد يهديه، كما أفاد بلازمِه أنَّ مَن يهديه الله تعالى؛ فهو معه، والمعنى فمن يهديه من بعد إضلال الله له، ومن يهديه سوى الله سبحانه[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل:

إيـثـارُ اختـيـارِ الاسـم الجليل (الله) في سياق الهداية والضَّلال

عبَّر بالاسم الجليل (الله)؛ لأنَّ الكلام في سياق ذكر الهداية والضَّلال، وهما من شأنِ الألوهيَّة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: وأضلَّه ربُّه، كما أنَّه قال: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يقل: من بعد ربِّه.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

التَّـذكُّـر سبب للاهتداء

الاستفهام في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإنكار لانتفاء تذكُّر الكافرين واستمرارِهم في ضلالِهم، بمعنى إنكار عدم تذكُّرهم ممّا يظهر من حالِ من اتَّخذ إلهه هواه، ومن أضلَّه الله، وختم على سمعِه وقلبه، وجعل على بصرِه غشاوة، وإنكار أن يهديه أحدٌ من بعدِ الله تعالى، فمثل هذه الحال لا يمكن عدم التَّنبُّه لها وعدم تذكُّرها والاتِّعاظ بها؛ لأنَّها حقيقة ثابتةٌ لا يمكن إنكارُها، ويتولَّد من الإنكار تنبيه المخاطَبين إلى التَّذكُّر؛ لتدارك أمرِهم وتوبيخ من لا يتذكَّر، كما يفيد الاستفهام الإنكاريُّ الأمرَ بالتَّذكُّر والحثَّ عليه، أي: تذكَّروا، فإنَّ التَّذكُّر سبب للاهتداء.

نوعُ الفاء وتعيين المعطوف عليه بها:

دلَّت الفاء على جملة محذوفة قبلها

الفاء في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفيد العطف والتَّعقيب والتَّرتيب المضمِّن معنى التَّفريع، ويدلُّ السّياق على المفرَّع عليه والمعطوف عليه، والتَّقدير: ألا تلاحظونَ، فلا تذكَّرون، أو ألا تتفكَّرون، فلا تذكَّرون[2]، فإنَّه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى أدنى تذكُّر.

(1) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 13/ 359، و13/ 150.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 73، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 435، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 150.

بلاغة الالتفات:

الالـتـفـات إلى الـخـطـاب في مـقـام الـتَّـذكـير يبعث على شدَّة الإقبال

لمّا كان الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإنكار على الكافرين الَّذين لا يتذكَّرون، ولا يتَّعظون؛ كان الانتقال من الغيبة في قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على طريق الالتفات؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أهمّيَّة التَّذكُّر، والالتفات إلى الخطاب في مقام التَّذكير يبعث على شدَّة الإقبال، كما أنَّ في الالتفات استدرارًا لأسماع المخاطَبين وتطرية لقلوب السّامعين.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

لا يـمـكـن لأيِّ عاقلٍ يستحضر الـحـقـائـق، ويـتـذكَّـرهـا أن يتَّخذ إلهه هواه

التَّذَكُّرُ هو التَّأمُّلُ، ولفظ (ذكر)؛ إذا جاء بصيغة التَّفعُّل، فيقصد به ذكر العقل لمعقولاته، أي: حركة العقل في معلوماته المخزونة فيه، فالتَّذكُّر قريب من التَّفكُّر؛ لأنَّ موضعهما العقل إلّا أنَّ التَّذكُّر لمّا كان مشتقًّا من مادَّة الذِّكر الَّتي هي في الأصل من جريان اللَّفظ على اللِّسان بمعنى إدامة الحفظ، وكان بمعنى خطور المعلوم في الذِّهن بعد السَّهو عنه وغيبته؛ أشعر أنَّه حركة الذِّهن في معلومات متقرِّرة ثابتة فيه من قبل[1]، وأنَّه لا يحتاج إلّا إلى تنبيه بسيط للرُّجوع إلى ما ثبت عنده في عقله، ولهذا أوثر التَّعبير بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دون أن يقال: (ألا تتفكَّرون)؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الحقائق من الظُّهور والوضوح بحيث يكفي في تحصيلها مجرَّد استحضارها في الذِّهن، أي: لا يمكن لأيِّ عاقلٍ يستحضر الحقائق، ويتذكَّرها أن يتَّخذ إلهه هواه.

دلالةُ التَّعبير بصيغة تفعُّل:

قليلُ التَّذكُّر يكفي لـلاهـتـداء، فـإنَّ طـريـق الـهـداية واضحٌ بيِّن

عبَّر في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بصيغة تفعَّل، أي: بإدغام إحدى التّاءين في الذّال؛ وذلك للإشارةِ إلى عدم الاحتياج إلى كثير تذكُّر؛ لأنَّ طريق الهداية واضحٌ بيِّن.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ المطلوب تجديد التَّذكُّر الَّذي هو سبب للاهتداء واستمراره وقتًا فوقتًا، فالتَّعبير بالفعل المضارع يدلُّ في أصل استعماله على التَّجدُّد الاستمراريِّ.

فائدةُ حذف مفعول ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ أدنى تفكُّر ونظر ينبِّهكم على الخطأ في اتِّباع الهوى وترك الاهتداء، فإنَّه لجلائه ووضوحِه، كالحاصل للعقل الَّذي يحضر عنده بأدنى تذكُّر والتفات، كما أنَّ في حذف المفعول إشارةً إلى تنزيل الفعل منزلة اللّازم بمعنى أن يكون التَّذكُّر وصفًا لازمًا لكم لا ينفكُّ عنكم.

الحثُّ على أن يكون التَّذكُّر وصفًا لازمًا للإنسان لديمومة الهداية واستمرارِها

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الختم والطبع:

الفرق بينهما هو أنَّ الختم هو المنع من تسرُّب شيءٍ إلى داخلِ شيءٍ آخر؛ لأنَّ الختم في الأصلِ بمعنى التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه، وأمّا الطَّبع؛ فهو أثر يثبت في المطبوع، ويلزمهُ، فهو يُفيد من معنى الثَّبات واللُّزوم ما لا يفِيدهُ الخَتم، ولِهَذا قيل: طُبِع الدِّرْهَمُ طبعًا، وهوَ الأثر الَّذي يؤثر فيه، ولا يَزول عَنهُ، ومنه سُمّي طبع الإنسان طبعًا؛ لأنَّهُ ثابت غير زائل، ومنه قولهم: طُبِعَ فلانٌ على هَذا الخلق؛ إذا كانَ لا يَزول عَنهُ[1]، وقال ابن عاشور رحمه الله: "إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سدِّ المغلوق، بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلّا بعد إزالة ذلك الشَّيء المطبوع به"[2]، فيشترك الختم والطَّبع في كونِهما بمعنى التَّغطية على الشَّيء والاستيثاق منه، فلا يدخله

الطَّبع ختم يصير سجيَّة وطبيعة، والختم قفل غير محكم، فقد يزول

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 17.

شيء، ويفترقان في أنَّ الطَّبع ختم يصير سجيَّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[1]، فالتَّعبير بالختم يفيد أنَّ المنع من الانتفاع ليس محكمًا مثل إحكام الطَّبع، ولهذا جاء - بعد ذكر الختم على السَّمع والقلب - التَّنبيه إلى أنَّ التَّذكُّر سبب للهداية، فقال تعالى في تذييل الآية: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

الغشاء والغطاء:

الفرقُ بينهما هو أنَّ الغطاء بمعنى ما يغطّي من فوق الشَّيء، وكُلُّ شيءٍ ارتفع، وطال عَلى شيءٍ؛ فقد غطّى عَليه، وأمّا الغشاء؛ فهو الَّذي يغطّي كلَّ الجوانب تمام التَّغطية، ولهذا يُسمّى ما أُلبِسَ جفنُ السَّيف مِنَ الجُلودِ مِن أسفل شارب السَّيف إلى أن يبلُغَ نَعلَ السَّيف بالغشاء، ومنه تسميةُ القيامة بالغاشية؛ لأنَّها تعمُّ جميع المخلوقات، وتغشاهم من جميع الجِهات[2]، كما أنَّ الغشاء قد يكون رقيقًا يبين ما تَحتَهُ، ويتوهَّم الرّائي أنَّه لا شَيء عَليهِ لرقَّته، ومِن ثَمَّ سُمّيت أغشية البدن، وهِي أعصاب رقيقَة قد غشي بها كثير من أعضاء البدن مثل الكبد والطِّحال، فالغطاء يَقتضي ستر ما تَحتهُ، ويكون كثيفًا، والغشاء لا يكون كذلك، وقيل: الغشاء يكون من جنس الشَّيء والغطاء ما يَقتضيه، سواء أكان من جنسه أم من غير جنسه، ولذلك تقول: تغطَّيت بالثِّياب، ولا تقول: تغشَّيت بها؛ لأنَّ الثِّياب ليست من جنس جسم الإنسان، فإن استُعمل الغشاء مَوضِع الغطاء؛ فعلى التَّوسُّع[3]، وعبَّر في قوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بالغِشاوة دون الغطاء؛ للإشارة إلى أنَّ الغِشاوة قد عَمَّت أبصارَهم، وإلى أنَّهم غافلون عن الغِشاوة الَّتي على أبصارِهم، فلا يشعرون بها، كما أنَّ الغِشاوة من أسماء الصِّناعات التي تفيد اشتمالها على البصر وتغطيته.

الـغـشـاءُ هو الَّـذي يغطِّي كـلَّ الـجـوانـب تمام التَّغطية والغطاء يَقتضي ستر ما تَحته، ويكون كثيفًا

(1) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 115.
(2) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشي، غطو).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 288.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"